في الدفاع عن الدرس الفلسفي في الجزائر

أ.د.موسى عبد الله(*)

تثمينا لمقال سابق لفضيلة الدكتور **البخاري حمانه**، تحت عنوان **"دفاعا عن الفلسفة"**[1]. مقال يندرج ضمن سياقية فرضتها سياسة التعليم في الجزائر من خلال تعميم ما كان يسمى في الثمانينات بالمشروع التكنولوجي الواجب تبنيه من طرف شعوب العالم الثالث أو (تهذيبا) الدول السائرة في طريق النمو فأوليت الأهمية للمواد المسماة علمية على حساب مواد مصنفة تارة في خانة ما يسمى أدبية أحيانا وإنسانية أحيانا أخرى. ومن ثم لا يزال المقال حاضرا منذ أن صدر بمجلة الثقافة –الجزائر– سنة 1986. بحضور نفس السياق والرؤية .. تثمينا لذات الموقف قدمنا هذا التعليق في صيغة مقال.

انطلاقا مما جاء في مقال الدكتور من أن الفلسفة الحقة لم تحارب في الماضي ولا تحارب اليوم لأنها غير مجدية، بل حوربت وتحارب لأنها مجدية ومؤثرة كونها تبحث في الجذور والإمكانات التي تحكم أي فكر أو اعتقاد... ومن أن مناهضي الفلسفة في العالم العربي والإسلامي قد نجحوا بالأمس واليوم، وبالرغم من كل ذلك، في إبعاد الفلسفة عن مسرح الحياة العربية الإسلامية بدعوى:

1- الأولوية التي أعطتها قيادات النظم العربية لعملية البناء المادي والتحديث السريع لمجتمعاتها التي تركها الاستعمار في حالة خراب ودمار، هي أولوية تمت على حساب جزء غير يسير من البناء الثقافي للإنسان في تلك المجتمعات.

---

* - أستاذ التعليم العالي، ومدير مخبر تطوير للبحث في العلوم الإجتماعية والإنسانية جامعة د.مولاي الطاهر، سعيدة.

1 _ د. البخاري حمانة، مقال: دفاعا عن الفلسفة – مجلة الثقافة. عدد 94.جويلية اوت الجزائر 1986.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- أن الفلسفة نوع من الهراء غير المجدي أو من الخيال أو الحلم غير المشروع[1].

وفي تساؤله عن جدية طرح هؤلاء المناهضين للفلسفة من مثل "**هل نستورد الحلول التي تحاول تلك الشعوب المتقدمة معالجتها بها ... والتي هي بالدرجة الأولى حلول فلسفية؟** "[2] ولو فرضنا – جدلا – أن استيراد مثل تلك الحلول الفلسفية ممكن، فكيف نجنب أنفسنا التفلسف، وهي لا تفهم إلا به؟ ... ثم كيف نوفق بين مطالبتنا باستعادة شخصيتنا الثقافية المميزة؟ بل وكيف نصمد أمام الغزو الثقافي والإيديولوجي الأجنبي الذي نتعرض له ونحن نقف مثل هذا الموقف من الفلسفة التي تشكل جزءا هاما من تراثنا الثقافي وشرطا أساسيا لتقدمنا[3].

لنتساءل **عن أية فلسفة نتحدث في هذا الموقف؟**

وإن اختلفنا مع الدكتور في وظيفة الفلسفة كما أراد لها، فإننا لا نود بدورنا أن تتحول الفلسفة الى إيديولوجيا بالمفهوم السلبي لها.. أي أننا لا نطلب من فلسفة/معرفة أن تعبر أو تكون بديلا. إن الفلسفة التي نريد ونقصد لا يمكن أن تكون اعتبارا لكل ما تقدم فلسفة من أجل التفلسف، بعيدة عن الواقع اليومي للناس أو متعالية عن يومياته، وعن طموحاته المقبلة، تماما كما لا يمكن أن تكون نقلا أو تكرارا لمقولات أو أفكار أجنبية نستوردها كما نستورد الآلات ونزرعها كما يزرع الجسم الغريب في مجتمعنا على أنقاض تراثه وقيمه وتطلعاته المتميزة.

فالفلسفة التي نريد، فلسفة يجب أن تنبع من أعماقنا حتى تكون قادرة على التعبير عن آمالنا وعلى التوفيق بين ماضينا وحاضرنا، دون جمود في زوايا الماضي، أو اندفاع غير واع وراء المستقبل. فلسفة تضمن اصالتنا وتفتحنا في الوقت نفسه على مختلف الفلسفات والثقافة والعلوم العالمية، فلسفة قادرة على تمكيننا من معايشتها، (هنا والآن)(hic et nunc)

---

1 – د. البخاري حمانة ، مقال : دفاعا عن الفلسفة .نفس المرجع.

2 – نفسه ، نفس الصفحة.

3 – نفسه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فلسفة تحيي كل إيجابيات ماضينا وتتفاعل بعمق مع كل معطيات حاضرنا لتمكننا من استيعاب علوم عصرنا وفقا لمنظورنا الحضاري ومن العمل المبدع للإسهام في التقدم العلمي والثقافي والإنساني... ولكي تتواجد الفلسفة بالكم والكيف المطلوبين في مختلف مناحي حياتنا بصورة عامة، وفي مختلف معاهدنا ومدارسنا بصورة خاصة فإنه لا بد كذلك من التحسين النوعي لمستوى القائمين على تدريسها، وذلك بتحسين ظروفهم المعنوية والمادية، والتعليمية، حتى يتمكنوا من إنتاج فلسفة جادة ومجددة لمختلف أوجه حياتنا وعلى القيام بدور الرابط والجامع بين مختلف التخصصات والعلوم، أو ذاك الذي يجنب المتخصصين في الفلسفة من التحول إلى شراذم منعزلة عن المجتمع وعما يجري فيه، ويحقق في الوقت ذاته الحوار الضروري بينهم وبين أولئك المتخصصين من جهة، وبين هؤلاء فيما بينهم من جهة أخرى.

وفي بحثه عن مقاربة جديدة ومجددة للإنسان العربي، ولماضيه ولواقعه وللغته، تجديدا يخرجه من دائرة النقل عن الآخر، التي لا زلنا نتخبط فيها منذ قرون، عكس أجدادنا الذين تجاوزوها في أقل من قرن، (ليتحولوا بعد ذلك الى أساتذة لغيرهم)، كما يجعلنا نتجاوز تلك المشاكل التي شغلتهم منذ قرون مضت، (وذلك مثل العلاقة بين النقل والعقل، والمرأة، والديمقراطية، والتقدم المادي وضرورته بالنسبة للعرب والمسلمين.. الخ)[1].

فهل الفلسفة كمشروع نهضوي تحقق وحدة الفكر والعمل للمثقفين في بلادنا وتتكامل جهودهم..؟ وهل نستطيع أن نحقق، في إطار ديمقراطي منسجم ومتطور، ذلك التقدم الذي ننشده، والذي نحرص على أن يكون تقدما يوصلنا بالمعطيات العلمية والتكنولوجية لعصرنا دون أن يقطع في الوقت نفسه صلتنا بكل ما في ماضينا الروحي والحضاري والثقافي العريق من مقومات؟.

---

1 – د. البخاري حمانة ، مقال : دفاعا عن الفلسفة .نفس المرجع.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في إطار هذه المقاربة المحتملة نتساءل مرة أخرى: **أي دور وأي مكانة وأي حضور نريد أن تتأسس عليه علاقة الفلسفة بالمجتمع في مجتمعنا؟**

في اعتقادنا، إن المسألة ليست في عمقها مسألة تربوية أو بيداغوجية فحسب، ولكنها مسألة اختيار سياسي واجتماعي واضح ومتكامل الأهداف والعناصر.

وعليه، سنوظف هنا، مفهوم الفلسفة بدلالتين متباينتين ومتداخلتين في الآن ذاته: **الدلالة العامة** و**المتداولة للمفهوم**، والتي تتحدد فيها الفلسفة بكونها "**محبة الحكمة**"، وأنها ذلك المجهود البشري المتواصل الذي يبذله الإنسان كي يفهم ويعقل وجوده وواقعه الطبيعي والاجتماعي، والذي شكل المحرك الأساسي لفعل التفكير أو الوعي الفلسفي عبر تاريخيته العريقة، بدءا من الاهتمام بقضايا الوجود والمعرفة إلى مشكلات الإنسان في المجتمع.

أما الدلالة الثانية، نريدها عطفا على ما جاء في مقال الدكتور **البخاري**، نقصد بها كل ما يفهم من مصطلح "**فلسفة مدرسية أو جامعية**" (*Philosophie Scolaire ou Universitaire*). وهي بهذا التحديد ليست فلسفة بالمعنى الشمولي المذكور آنفا. وإنما هي جزء أو مكون من "**ثقافة أو معرفة مدرسية أو جامعية**" أي من "**خطاب مؤسسي**" موجه، محكوم، في مضامينه وأهدافه وآليات اشتغاله وتداوله المؤسسي، برهانات، وخلفيات، وتوجهات، وإكراهات، وشروط بيداغوجية وتربوية واجتماعية متنفذة في الزمان والفضاء[1].

فالفلسفة من خلال هاتين الخاصيتين تعبر في بعض من جوانبها ومكوناتها عن المعالم الكبرى للنسق المجتمعي الثقافي المهيمن أي عن أسسه وتوجهاته الفكرية والإيديولوجية والحضارية – ويبدو أن التجربة الغربية المعاصرة في مجال تدريس الفلسفة – مع التنبيه إلى اختلافها عن

---

1 – انظر مصطفى محسن . "المعرفة والمؤسسة." مساهمة في التحليل السوسيولوجي للخطـــاب الفلسفي المدرسي في المغرب" ط1. 1993.دار الطليعة .بيروت . ص.23 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوضاعنا الراهنة – قد أصبحت تتسم أكثر فأكثر بتوجه تربوي وفكري عام يقوم على اهتمام متنام بضرورة الانتقال من التركيز على القضايا الكليانية الكبرى إلى تحديد وتوجيه هذا التركيز، وربطه بالقضايا والرهانات المحددة للمشروع المجتمعي المتنفذ. إنه توجه يقوم على الكثير من المعايير والقيم الواقعية، إلا أنها ليست مجرد واقعية ساذجة، بل واقعية واعية بأهدافها وشروطها الموضوعية.

يختلف الأمر بالنسبة لطرفي العلاقة فلسفة/مجتمع، بحيث أن المجتمعات الغير مكتملة المشروع.. ومنها مجتمعنا الذي تتميز فيه الفلسفة بنظرة غير معيارية تعبر فقط عن دراسة سكونية للواقع بتركيزها على إشكاليات مفارقة لحاجات ورغبات وطموح الإنسان/الفاعل. إنها نوع من تهجين لكل ما هو جديد .. وهو أقصى ما تطمح له مجتمعاتنا.

على هذا الأساس تدمج الفلسفة في هذه المجتمعات ضمن دواليبها وتتبناها، اعتقادا منها أن «الشر الذي سيلحقها لو هي منعت تدريسها أشد وأعظم مما قد يلحقها من "**هوامش**" تفشل في تدجينها وتهجينها»[1]. تصبح نوعا من "**البريستيج**" على حد تعبير "**مصطفى محسن**" لا أكثر.[2] إنها العلاقة أو الارتباط الذي يأبى الخضوع لنفس المواصفات والمعايير التي تخضع لها باقي المعارف الأخرى . والتي سبق أن اشار اليها الدكتور **البخاري** في مقاله.

إن الفلسفة في دورها الأيديولوجي مرتبطة بالواقع ارتباط مواجهة لا مصالحة. ولا تعني المواجهة مجرد الرفض من خلال النقد بل هي كذلك إعادة بناء و تأسيس. في حين الفلسفة في جانبها المعرفي، لا توجد إلا داخل التاريخ والمجتمع اللذان ينبنيان على معايير ومقاييس تسمح في أغلب الأحيان بالرفض والمساءلة، ومن ثم يكون الحيز المتاح لحرية

---

1 – بوقرعة الخمار : مقال " دور الفلسفة في التربية " جريدة أنوال الثقافي بتاريخ 1988/05/28. المغرب . ص 10.

2 – مصطفى محسن . "المعرفة والمؤسسة." المرجع السابق . ص.24 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفلسفة/المعرفة هو الكفيل بتحديد مدى إمكانية إنجاز أو تحريك.. يقول "**جورج لوكاتش**" في هذا الصدد:

«.. فالمستوى الفلسفي لمفكر من المفكرين إنما تقرره في نهاية إكساب الإمكانية المتروكة له، إمكانية ولوجه إلى هذه المسافة أو تلك، تحليل مسائل زمنه ورفعها إلى هذه الدرجة من التجريد أو تلك»[1]. لكن وبما أن المشروع المجتمعي غير مكتمل في هذه المجتمعات كما ذكرنا سلفا ــ أي لازال مشروعا قائما على العنف المادي والرمزي والتضليل الإيديولوجي، فاقد لأية مؤسسة عقلانية إلا من القوى والمصالح الداعمة له، وفاقد لوجود نسق ثقافي ــ إيديولوجي منسجم ناظم للكل المجتمعي .. الفلسفة في الدور المنوط بها تجد نفسها ملزمة بالتزام **الهامش** و**العزلة** كما هي عليه اليوم في مجتمعاتنا..

وإذن كيف يمكن لنا تأسيس دعوة إلى تحرير الفعل الفلسفي للفلسفة كمنظومة من جملة الضغوط المباشرة وغير المباشرة؟ وبالتالي تحرير الفعل كأداة تحرير للمجتمع؟ الحاصل أن الدور الايديولوجي أو المعرفي اليوم أصبح لا يعبر بالضرورة عن ثقافة منسجمة ومتكاملة .. بل كثيرا ما تكون متناقضة ولا تعبر عن الكل المجتمعي.

فعلى سبيل المثال، حينما كان الفلاسفة قديما منذ "**أفلاطون**" يتخيلون جمهورياتهم وينصّبون الفيلسوف ملكا عليها .. فالآن لم يعد الحاكم يستشير الفيلسوف، بل يستشير فقهاء القانون وخبراء الاقتصاد.. وإن كان لا يعني بالضرورة عدم الحاجة إلى الفلسفة بقدر ما يعني سوء فهم وتقدير للمكانة المنوطة بها في وسط اجتماعي لم تتضح معالمه بالقدر الكافي. فهي كما قال "**نيتشه**" في هذا الصدد:«.. كلما سعى فرد ما إلى الاكتفاء الذاتي، كانت

---

1 ــ جورج لوكاتش : تحطيم العقل . ترجمة إلياس مــرقص . دار الحقيقــة . بيــروت . ج1 . 1980 . ص 15 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفلسفة جاهزة دائما لمضاعفة عزلته ولتحطيمه داخل هذه العزلة. إن الفلسفة لخطيرة حين لا تكون مالكة لجميع حقوقها»[1].

كما أن الواقع اليوم وإن كان لا يعير اهتماما الى الفلسفة كما ذكر الاستاذ **البخاري** في مقاله، كون الحاكم في هاته المجتمعات الغير مكتملة المشروع لا يستشير الفلاسفة ولا المفكرين. فإنني هنا بقدر ما أثمن مقال استاذي بقدر ما أضيف إليه ما يلي إن دفاعه عن الفلسفة هو دفاع عن العقل والمعرفة أولا.

في ضوء هذه العلاقة الراهنة يمكن الإقرار بأن المؤسسة لم تسلب من الفلسفة كل فاعليتها ونزعاتها التحررية وقدرتها على البحث.. عن العديد من هوامش الاستقلال والتحرر من كل هيمنة مطلقة للمؤسسة الاجتماعية، مما يؤهلها لتحرير ذاتها والمؤسسة في آن. فكلما كان مجال تحرك الفلسفة متسعا كلما كانت مهامها أقرب إلى الإنجاز... حتى وإن كان لا أحد منا ينكر من أن التحول الذي وقع في الجزائر سنة 1988، لم تسهم فيه الفلسفة، ولم يكن لرجال الفلسفة أي دخل في أحداثه.

فهذا لا يدين بأي حال الفلسفة بقدر ما يجعلها تسعى وتقترح مختلف الإمكانات التي توسع من مجال أفكارنا وتنقذنا من طغيان التقليد، وعليه الفعل الفلسفي جدير بتقديم المستقبل كواقع وكحقيقة وكغاية، من أجل تعليم فلسفي يعمل على تغيير الذهنية وترسيخ تقليد ثقافة السؤال والمساءلة.

لذا ندعو إلى تكريس حوار اجتماعي وتربوي منفتح حول هذه المسألة. حوار حول بعض آثار وعواقب التحولات التي تعرفها أنساق القيم والممارسات الاجتماعية والتربوية الموسومة بغياب المعايير والمأسسة المنتجة للفعل الفلسفي. وخاصة في راهن ما يحياه مجتمعنا من تحولات متسارعة.. تحولات يهيمن فيها خطاب العولمة والجهوية، والخصخصة.. وتنشيط مختلف آليات وشرط الانتقال الديمقراطي...الخ. فأي دور يمكن أن تلعبه الفلسفة، على مستوى المؤسسة التربوية، وفي إطار هوامشها وضفافها

---

1 – ف. نيتشه. الفلسفة في العصر المأساوي والإغريقي. ترجمة: سهيل القش. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. ص39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وارتباطاتها الاجتماعية، وفي محاورة هذه الظروف والخطابات ونقدها وتكريس بعضها وتثمين البعض الآخر؟ إنه الدور التاريخي الذي سبق تأكيده..

خاتمة:

إن جدوى الفلسفة يجب ألا يفهم على نحو مطلق، لأن هذه المواجهة التي ذكرنا قد تبرر قبول الفلسفة حتى بأوهامها وبدائلها.. مما لا يجعلنا نسلم مثلا بإطلاقية الديمقراطية؟ أو بشرعية الاشتراكية مثلا؟.. لهذا تنشأ الحاجة إلى الفلسفة كخيار لإعادة النظر في الوضع الكارثي الذي نعيشه، في ربطها بالأسئلة الجوهرية التي تفكر من المعيش اليومي إلى القيم الأخلاقية والفلسفية الكبرى، كالخير والشر، وحرية الإنسان. إننا بحاجة ماسة إلى تراكم الإنتاج الفلسفي وإلي دمج الفلسفة في الشأن العام، ليس فقط كما قال **ماركس**، بإنزالها من السماء إلي الأرض، ولكن بجعلها مولدة لوعي حضاري وأخلاقي وإنساني جديد. ومن هذا المنظور، فإن الفلسفة ستوجد بفعل قدرتها على ربط خيوط الفكر من جديد بالسياق والواقع، ودفعها إلى أن تمتحن قيمتها البراغماتية في التفاعل مع الأسئلة الواقعية، وإنتاج مفاهيم مرتبطة بالتاريخ والراهن والمستقبل.. آنذاك يكون دفاعنا عن الفلسفة دفاعا عن العقل.

هوامش ومراجع:

1- البخاري حمانة، مقال : **دفاعا عن الفلسفة** – مجلة الثقافة . عدد94 . جويلية ، أوت الجزائر 1986.

2- مصطفى القباج. **تدريس الفلسفة والبحث الفلسفي في الوطن العربي** (اجتماع الخبراء بمراكش يوليو 1987) ط 1. 1990. دار الغرب الإسلامي .بيروت.

3- انظر مصطفى محسن . مقال : "**الفلسفة والمؤسسة التربوية ــ أسئلة التحول في المجتمع المغربي المعاصر ــ نحو رؤية سوسيولوجية نقدية**" الجزء الأول ــ مجلة فكر ونقد . العدد 12 .1998. دار النشر المغربية ــ الدار البيضاء . المغرب.

4- بوقرعة الخمار : مقال "**دور الفلسفة في التربية**" جريدة أنوال الثقافي بتاريخ 1988/05/28. المغرب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5- انظر محمد لبيب النجيحي: "**الأسس الاجتماعية للتربية**" . القاهرة . مكتبة الأنجلو المصرية .1968.

6- جورج لوكاتش: "**تحطيم العقل**" . ترجمة إلياس مرقص . دار الحقيقة . بيروت . ج1. 1980.

7- فريدريك نيتشه . "**الفلسفة في العصر المأساوي والإغريقي**" . ترجمة .سهيل القش . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

8- Jaques Bonnet : ***L'enseignement au cœur du projet d'établissement***, les Eds. d'organisation, Paris, 1994

9- A. Vasquez, F. Oury: ***Vers une pédagogie institutionnelle***, Ed. F. Maspero, Paris, 1967

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com